المحور الرابع :

نظريات معاصرة في فلسفة التاريخ

انتهت مرحلة الحرب الباردة بين المعسكر الاشتراكي السوفييتي وبين الغرب الليبرالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، بانتصار الليبرالية وسيادتها على الساحة العالمة، فسادت الليبرالية اجتماعية والديمقراطية اقتصاديا والرأسمالية اقتصاديا، وبدى أنه لم يبق في الساحة خصم جدير منافس لها. فدخلت الانسانية في عصر ما يسمى ب"العولمة". في خضم هذه الأحداث عادت نظريات فلسفة التاريخ للظهور، حيث سيعلن مفكر أمريكي من أصل ياباني مهللا بانتصار الأيديولوجيا الليبرالية بأن تطور النظم السياسية في التاريخ قد وصل الى ذروته مع نموذج الديمقراطية الليبرالية، وبأن تاريخ تطور الانسانية قد توقف عند هذا الحدث، ولن يكون هنالك من جديد على مستوى السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي. معلنا أن الانسانية قد وصلت الى مرحلة التاريخ التي تحدث عنها هيجل قبل قرنين من الزمان، لكن مفكرين آخرين ردوا على هذه الأطروحة بالنقيض، وأعتبروا أن تصاعد الحروب والصراعات في كل أنحاء العالم اليوم، ينذر بالأطر، وبأن التاريخ ما يزال مفتوحا، وعليه فما هي أهم نظريات فلسفة التاريخ المعاصرة هذه:

1.نهاية التاريخ: [1]

رأى الكسندر كوجيف (Alexandre Kojève) في مجمل تأويله لفلسفة هيجل وأحداث القرن العشرين ، أن النمط الأمريكي في العيش قد انتصر ، وأنه دون غيره سيكون تجسيدا لنهاية التاريخ. وانطلاقا من هذه الفكرة سيعمد فرنسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) الى صياغة أحد اكثر الطروحات الفكرية شعبية وإثارة للجدل في المدى الفكري الراهن ، أي طرح نهاية التاريخ ، القائم بسيادة العولمة وانتصار نموذج الديمقراطية الليبرالية.

[1] مرجع النص (أيمن بوطرفة، سؤال العدالة في الفلسفة السياسية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2022، من ص164 الى ص168)

يستند فوكوياما في البرهنة على اطروحة نهاية التاريخ الى تراث من الفلسفة الغربية، حيث يأخذ هيجل فكرة أن للإنسان حاجات وجودية تفوق حاجاته المادية (الحاجة لغذاء والمأوى ومختلف الحاجات البيولوجية)، ويأخذ من أفلاطون فكرة أن النفس مقسمة الى ثلاثة أجزاء، وأن الجانب الغضبي (الثيموس) يعني ارادة الانسان في الحصول على الاعتراف، اعتراف بالمساواة مع البشر الآخرين، واعتراف بالتفوق على الآخرين، وقد فسر فوكوياما التاريخ من خلال قانون جدلية الصراع من أجل الاعتراف (جدلية الثيموس)، التي اعتمد في صياغتها على جدلية السيد والعبد كما أخذها من عند هيجل. واعتبر أن التاريخ يمثل تطورا خطيا يحكمه منطق الصراع من اجل الاعتراف، وأن نهاية ستتحدد بنهاية تلك الجدلية. ورآى أن الليبرالية الديمقراطية وحدها هي من يمكن لها أن تكون نهاية تلك الجدلية وبالتالي نهاية التاريخ.

من هنا يأخذ فوكوياما فرضية "شيخوخة الفكر البشري" ، وهي فكرة هيجلية، تفترض الانطلاق من تصور مسار خطّي للتاريخ يهدف الوصول الى غاية محددة. ففي التراث الفلسفي الغربي نجد أن مصادر هذا الطرح تعود في أول الأمر لأصلها اللاهوتي ، أي التصور المسيحي لمسار التاريخ. "إن أول روايات عن تاريخ عالمي حقيقي في التراث الغربي هي روايات مسيحية ... فمؤرخ مثل أغوسطين الهيبوني لم تكن تهمه التواريخ الخاصة بالإغريق أو اليهود باعتبارهم اغريقا أو يهودا ، وإنما كان يهمه خلاص الانسان بوصفه انسانا ، وهو حدث يشكل تحقق الارادة الالهية في الأرض.

ومع الحداثة تم علمنة هذا التصور وأنسنته من حيث أن الحداثة ذاتها تمثل عملية نزع التفسير السحري عن العالم (désenchantement) على حد تعبير ماكس فايبر (max weber). وفي هذا تظهر تصورات فولتير وكانط وماركس وخصوصا هيجل الذي رأى في التاريخ سيرورة غائية نحو العقل أو روح العالم. فكان هيجل بهذا أهم من قال بمرحلة شيخوخة الفكر البشري ، كغاية لنضج الفكر البشري أو بالأحرى الوصول الى غايته النهائية.

يمكن القول اذا أن نظرية نهاية التاريخ تمثل تصورا خطيا لتاريخ الفكر البشري ، يصل مع نموذج الانسان الحديث لغايته، أي الى نهاية تاريخه بالمفهوم الهيجلي. فالإنسان مر بمرحلة الطفولة في مجتمعات ما قبل الدولة، ثم وصل مرحلة الشباب والفتوة مع بداية ظهور الدولة ومحاولات تشييد الحضارات، التي ميزها الاندفاع للغزو والحروب الدموية. بعدها شهد مرحلة الكهولة مع تسلسل مراحل بناء مفهوم الدولة الحديثة وقيمها. وهاهو اليوم ومستقبلا يدخل مرحلة شيخوخته، أي نهاية التاريخ، التي تتميز مثلها مثل مرحلة شيخوخة الفرد البشري طبيعيا بالهدوء والسكينة، وما يرافقها انطفاء الطاقة الخلاقة. هذا التصور يُذكِّر بالتفسير البيولوجي للحضارات كما يوجد عند اسزوالد اشبنجلر (Oswald Spengler) ، لكن هذا الأخير يأخذ بمسار الدورات الحضارية، ومعناه أن: "لكل حضارة إمكاناتها الخاصة للتعبير عن ذاتها ، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعود أبدا. وفي المقابل يظهر تصور المسار الخطي التطوري عند هيجل.

إن تصور شيخوخة الفكر البشري هو تصور يندرج في منظور التاريخ العالمي، وهو تصور يحيل ضرورة لمفاهيم من قبيل نهاية التاريخ، نهاية الفكر، نهاية الفلسفة، نهاية الأيديولوجيا ... أو ما يعرف عامة في قاموس ما بعد الحداثة بفلسفة النهايات. وتجعل أحداث الزمن الراهن هذا التصور يبرز على الواجهة بوصفه تشخيصا لروح العصر .

بهذا يتم الانقياد الى التساؤل حول مصير الانسان ومستقبله في ظل هذه المعطيات والمستجدات ، خصوصا وأن المفهوم والمصطلح ذاته يبقى غامضا وغير واضح كفاية. ف"موت الانسان" لا يعني نهاية الجنس البشري بقدر ما يعني نهاية حقبة معينة من الوعي البشري ، حيث يرتبط هذا الوعي بنوع من القطيعة مع مختلف المكتسبات التي حصّلها الانسان طوال تاريخه من ميتافيزيقا ، أيديولوجيا ، أديان ، فلسفات وأفكار .

من هنا يفترض طرح نهاية التاريخ بأن الانسان قد وصل الى مرحلة الهرم الفكري، أي أنه لم يعد قادرا على ابتداع منظومات قيمية جديدة ، وأن أفكاره أصبحت عقيمة وغير قادرة على

صنع أي قداسة جديدة لأي انتاج قيمي جديد يوحد القوى البشرية للنهوض بأي مشروع كبير جديد .

بمعنى أن طرح نهاية التاريخ يعني نهاية تأثير السرديات الكبرى من أديان وأيديولوجيات، ويتزامن طرح نهاية الايديولوجيا هذا مع تصاعد النزعة الفردانية التي تعني أن الفرد أصبح يمثل القيمة العليا لذاته وبذاته، بالخصوص في مجتمعات الدول الكبرى والمتقدمة، أين تهيمن النزعة الليبرالية بجلاء.

ان طرح شيخوخة الفكر البشري يحيل ضرورة الى مرحلة نهاية التاريخ، التي ترتبط في الخطاب الفكري الراهن بالعولمة في أبعادها الكونية، والتي تعني أيضا ظهور مفهوم خاتم البشر أو الانسان الأخير، باعتباره نموذج انسان هذه المرحلة.

2.صدام الحضارات: [2]

تنطلق نظرية صدام الحضارات أو الثقافات من فرضية مخالفة لنظرية نهاية التاريخ في تصور الغاية والمسار، ففرضية صدام الحضارات تبدأ من تفسير حركة التاريخ وفق مسار دوري، وقوانين هذه الحركة هي الصراع والتنافس بين الثقافات والحضارات المختلفة. وقد برزت هذه النظرية بشكل جلي بُعيد أحداث تسعينيات القرن الماضي وما تبعها من صراعات وحروب وتجاذبات نعيش نتائجها اليوم. وقد برز في هذا السياق عديد الأسماء الفكرية، نذكر منهم "برنارد لويس" و"المهدي المنجرة" و"صموئيل هنتغتون".

ردا على أطروحة نهاية التاريخ الفوكوياماية، أصدر "هنتغتون" (Samuel Phillips Huntington 1927 – 2008) كتابا في سنة 1996 كان له صدى واسعا في الساحة الفكرية، قارب وتجاوز أطروحة نهاية التاريخ، هذا الكتاب عنوانه الرئيسي "صدام الحضارات"، وفكرته الرئيسية تأتي رافضة لمقولة نهاية التاريخ القائلة بأن انتصار الليبرالية الديمقراطية حتميّ، وبأن العولمة ستكون مجالا ساكنا، لا حرب ولا مشاكل سياسية كبرى فيه. فبالنسبة للطرح الصدامي ، فان التاريخ مقبل على أحد أكثر مراحله خطرا، عكس ما يحاول طرح النهاية أن يروّج له بطرحه التفاؤلي الساذج ، الذي يسكت عن كثير من الأمور حول الذات ، الهوية ، الثقافة والتاريخ.

يعتمد هنتنغتون على قراءة أعمال برنارد لويس (Bernard Lewis) ، المختص في الدراسات التاريخية الإستشراقية في المنطقة الشرق أوسطية تحديدا. وهو القائل بفكرة صراع الهويات الدينية ، وصراع المركز مع الأطراف ، والصراع داخل مركز الحضارة ذاتها. حيث سينحل هنتنغتون هذه المقولات في صياغة نظريته عن صدام الحضارات.

---

[2] **مرجع النص (أيمن بوطرفة ، النظام العالمي الجديد والشرق الأوسط : قراءة في مقاربات الخطاب الفكري الأمريكي ، مجلة شؤون الأوسط ، العدد 157 ، ربيع 2018 ، مركز الدراسات الاستراتيجية ، بيروت ، لبنان، من ص13 الى ص16)**

يرادف هنتنغتون من جهة بين الثقافة والحضارة ، ويربط الهوية الحضارية بالفكرة الدينية من جهة أخرى. ففي تقسيمه للحضارات يربط كلا منها بدين معين (الإسلامية ، الغربية(مسيحية) ، الأرثوذوكسية ، البوذية ...) . وهته الهوية الدينية هي ما يشكل جوهر الحضارة المسئول عن قدرة هته الحضارات على الصمود عبر الزمن. الهوية الدينية الحضارية تمثل هوية صلبة ، أي أنها في عملية التلاقي مع الهويات الأخرى تهدد بالتصادم مع غيرها. حيث يصل هنتنغتون إلى استنتاج أن الهوية الإسلامية والهوية الصينية هما أصلب هته الهويات. وحيث أن الأولى بفعل طبيعة خطابها الكوني فإنها تعتبر هوية متصادمة مع غيرها بالطبيعة ، خصوصا مع هوية الحضارة الغربية التي تحمل مشعل لواء ما يعرف بالنظام العالمي الجديد ذو الطبيعة الكونية هو الاخر.

نتوقف هنا عند فكرة العولمة ،فان هنتنغتون ينطلق من نقد طرح فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ ، حول نهاية الثقافات والحضارات لصالح النموذج الأحادي المنتصر أي نموذج الحضارة الغربية والنظام الثقافي السياسي الليبرالي الديمقراطي. يقول صاحب صدام الحضارات بعالم متعدد الحضارات ومتعدد الأقطاب وهذا ما قصده بعنوان كتابه النظام العالمي الجديد. إن انتصار الأيديولوجية الغربية على نظريتها الاشتراكية السوفييتية والذي عنى ضمنيا نهاية عهد الثنائية القطبية لا يفترض بنا أن نتسرع في تصور النظام العالمي الجديد على أنه انتصار للقطب الواحد والنموذج الواحد كما أشار فوكوياما في غمرة تهليله بسقوط الاتحاد السوفيتي في كتابه الصادر سنة 1992م . بل إن النظام العالمي الجديد قائم على تعدد الحضارات والأقطاب ، وهذا ما ستبرهن عليه الأحداث الواقعية على حسب رؤية هنتنغتون . ولكن مع ذلك فان التنوع الحضاري هو ذاته ما يمثل خطرا قائما في الأفق. إن الهويات المتصادمة والمتعولِمة تهدد بحدوث صدام عالمي إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة ، وحيث أن العالم يحفل ببؤر صدام نائمة تنتظر فقط المحفزات الضرورية لتشتعل من جديد. وأهمها هي منطقة الشرق الأوسط بحدودها الدموية على تسمية هنتنغتون.

يرى هنتنغتون أن الصدام حتمية تاريخية ولا يمكن لنظام عالمي أن يسمى بنظام عالمي شامل إلا إذا قام بقبول فكرة التعدد الثقافي والحضاري ، لكن هذا التعدد يحمل في طياته بذور الصدام _وما الشرق الأوسط إلا أبرز دليل على نظرية صدام الحضارات كما سبق الإشارة إليه_. وهنا تكمن المفارقة ، فهنتنغتون يقول بفكرة الصدام على مستوى الخطاب المصرح به للقبول بالتعدد الثقافي والحضاري. ومن جهة أخرى يعمل على مستوى ما وراء الخطاب على تحفيز الحضارة الغربية وعلى رأسها الو.م.أ للبقاء على أهبة الاستعداد عسكريا لغرض الحفاظ على سيادة النظام العالمي في مواجهة التحديات التي تطرحها طموحات الهويات الحضارية الأخرى المتصاعدة.

بمعنى آخر فإن طرح صدام الحضارات يرسم حدودا غير قابلة للتجاوز بين الأنا والآخر، بين الصديق والعدو، ويؤصل لامتداد العداوات التاريخية الى راهننا المعاصر. ويجعل من الصراع والصدام بين الهويات الجمعية (الحضارات والثقافات) أساسا لحركة التاريخ.

****

****

***

****

ككلمة ختامية لمباحث هذا المقياس الذي قادنا الى رحلة في مختلف سياقات وأسئلة ونظريات فلسفة التاريخ، فيمكن القول أن فلسفة التاريخ مبحثٌ هامٌّ من المباحث الفلسفية الحديثة العهد في الفكر الفلسفي، تنتمي الى حقل الدراسات الفلسفية مثلما تنتمي الى دراسات علم التاريخ، تظهر ارهاصاتها في مختلف الفلسفات منذ القديم، ونجد محاولات تأسيسية لها منذ القديس أوغسطين لبن خلدون، "لكنها لم تتضح كعلمٍ مستقلٍّ إلَّا في القرن السابع عشر، وقبلا تحدَّدت معالمها في القرن الثامن عشر الذي شهد العديد من فلاسفة التاريخ أمثال فيكو ومونتسكيو وفولتير وكوندورسيه وهردر وغيرهم. وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته في القرن التاسع عشر على يد أعلامِ هذا القرن أمثال هيجل وكونت وماركس. وترجع أهمية فلسفة التاريخ إلى حيوية موضوعها حيث تتناول بالدراسة حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها وسقوطها في مرحلةٍ معينةٍ من تاريخها، والقوانين التي تحكم حركة التاريخ وتطوره"[3].

[3] عطيات أبو السعود ، فلسفة التاريخ عند فيكو ، مؤسسة هنداوي، مصر ، 2021 ، ص7 –بتصرف–

عناوين مراجع في المقياس:

- إلفين توفلر، ***حضارة الموجة الثالثة***
- أيمن بوطرفة، ***سؤال العدالة في الفلسفة السياسية الراهنة***
- جيرار لكيلرك، ***العولمة الثقافية الحضارات على المحك***
- دييتر سنغاس، ***الصدام داخل الحضارات التفاهم بشأن الصراعات الثقافية***
- رأفت الشيخ، ***تفسير مسار التاريخ (نظريات في فلسفة التاريخ)***
- رالف بارتن بيري، ***آفاق القيمة دراسة نقدية للحضارة الانسانية***
- سيغموند فرويد، ***الطوطم والحرام***
- صامويل هنتنغتون، ***صدام الحضارات: اعادة صنع النظام العالمي***
- عبد الحليم مهورباشة، ***فلسفة التاريخ مدخل الى النماذج التفسيرية للتاريخ الانساني.***
- عبد الرحمن بن خلدون، ***المقدمة***
- عبد الله العروي، ***مفهوم التاريخ الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول***
- عطيات أبو السعود، ***فلسفة التاريخ عند فيكو***
- غوستاف لوبون، ***سر تطور الأمم***
- فرنسيس فوكوياما، ***نهاية التاريخ وخاتم البشر***
- ماكس هوركايمر، ***بدايات التاريخ البورجوازية***
- مصطفى النشار، ***فلسفة التاريخ***